حكومة النساء لدى الخلفاء

من بني العبـــــاس

الأستاذ صلاح الدين المنجد

يقول (دوفيل) في كتابه عن الأمبراطورة (جوزفين) ، إن من النساء من أوتين الميل إلى الحكم والرغبة فيه ، رغم ما فيه من مشاق ومصاعب ، لأنهن لا يرين في شيء من الأشياء مستحيلا . فتلك ظاهرة في طبعهن وغريزتهن . فهن يرغبن في الإحاطة بكل شيء علماً ، وعرفان ما تحته وما فوقه ، ليتممن النقص الذي فيهن .

فهن يحكمن على عشاقهن ؛ فإذا أخطأهن ما أملن ، حكمن على أزواجهن وأولادهن ثم تمتد ذلك إلى حكم سواحبهن ، فاذا وجدن المجال ذا سعة ، وكن ممن يلوذ بالملوك والأمراء والوزراء ، سولت لهن أنفسهن أن يحكمن الرعية ويدبرن أمورها .

أما حكمهن العشاق ، فأمر لا ريب فيه ، فهن في أغلب الأحايين ، عابثات بالقلوب ، لاعبات بالألباب . أما حكمهن الأزواج فأمر كثير الوقوع ، وندر أن تجد امرأة لا تحكم زوجها . ولكن حكمهن العباد ، وتصرفهن في الأمور ، وتدبيرهن الملك قد تبدو مستحيلة لا تقع ، بعيدة لا تنال . على أن لجاجة النساء لا توصف ولجاجهن لا يدرك ، ثم هن لا يعرفن المستحيل . وفي التاريخ الإسلامي ألوان من البرهانات ، تدل على حكمهن . وسأسوق الأدلة من بدء العصر العباسي ، إلى منتصف القرن الرابع الهجري .

وقبل أن أبدأ ، أذكر أن الجاحظ قد لاحظ بعض هذا ، فقال : « إنه لم يزل للملوك إماء يختلفن في الحوائج ويدخلن في الدواوين ، ونساء يجلسن للناس» فيذللن ما صعب وينلن ما بعد . على أن سلطانهن ، كان على قدر مبلغ سحرهن ونفوذ أمرهن ، وتملكهن قلوب الخلفاء . وواضح أن تحكمهن يكون على قدر ضعف الخليفة ورقة عقله ، وانقياده . ولذلك تجد أن بعضهم تركوا لهن الأمر كله ، وأن بعضهم سايروهن مرة ، وغاضبوهن مرة ، وآخرون لم يحفلوا بهن أبداً .

فالسفاح ، ابتعد عن النساء ، فلم يرغب فيهن لملذاته بل لاستشاراته . وحاول خالد بن صفوان أنه يثير شهواته مرة بذكر الجواري وأوصافهن ليغريه بشرائهن ، فلم يفلح . وكان يقول : العجب ممن يترك أن يزداد علماً ، ويختار أن يزداد جهلا . فسئل : ما تأويل ذلك ؟ قال : تترك مجالسة مثلك ومثل أصحابك ويدخل إلى امرأة فلا يزال يسمع سخفا ويروي نقصا .

على أن المنصور كان ألين منه ، وأندى سمعاً للنساء . فقد تزوج ابنة منصور الحميرية ، فشرطت عليه أن لا يتزوج ولا يتسرى إلا عن أمرها ، ففعل . ولم يتعد سلطانها زوجها[1] .

وبدأ سلطان المرأة يقوى منذ تولى المهدي الخلافة ، وتزوج

قلت : (ما يعرف قبيلا من دبير) ذكره الميداني في (مجمع الأمثال) وأورد اللسان له أكثر من عشرة تفاسير ... منها : لا يعرف الأمر مقبلا ولا مدبرا ... وقيل : ما يعرف نسب أمه من نسب أبيه ... وقيل : القبيل القطن والدبير الكتان ... وقال المفضل : القبيل فوز القدح في القمار والدبير خيبة القدح ...

* * *

ج ١٩ ص ٥٢٨ : البحتري :

وكأن اللقاء أوّلُ من أمس (م) ووشك الفراق أول أمس

قلت : (أولَ من أمس و (أولَ أمس) في الصحاح : تقول ما رأيته منذ أمس فان لم تره يوماً قبل أمس قلت ما رأيته مذ أول من أمس فان لم تره مذ يومين قبل أمس قلت ما رأيته مذ أول من أول من أمس ولم يجاوز ذلك . في التاج : أمس جمعه آمس وأموس وآماس ، قال :

مرت بنا أول من أموس تميس فينا مشية العروس

والنسبة إلى أمس إمسي على غير القياس وهو الأفصح .

نسيت أن أروي من قبل بيتاً للبحتري في أمثاله وحكمه يحتاج إلى التمثيل به كثيراً ، والبيت هو هذا :

ليس الذي يعطيك تالد ماله مثل الذي يعطيك مال الناس[1]

---

(١) في الرسالة ٦٥٠ في القسم — ٢٠ — إلى ذي السنى هي (إلى ذا السنى) ومحقود أو حاقد هي (ومحقود عليه أو حاقد) وفي (عليه) الشاهد ٢٦٠٤

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠٠ .

الخيزران . فقد كان لها سلطان على القصر ، والندماء والحجاب والأطباء ، تقرّب منهم من تشاء وتبعد من تشاء . ولقد أخذت مرة فى مناكدة بختيشوع بن جورجيس الطبيب ومضاربته ، وأثرت فى الهدى ، فلم يرد بداً من إعادته إلى جند يسابور[1] .

فلما ولى الخلافة الهادى زاد نفوذ الخيزران وتدخلها فى شؤون الدولة . وقد كان الهادى يتناول المسكر ، ويلعب ويلهو ، ويركب حماراً فارهاً ، ولايقيم للخلافة أبهة ولا عظمة ؛ فلا عجب ممن كان هذا شأنه إن وكل أمور الدولة كلها إلى أمه الخيزران . فقد كان كثير الطاعة لها يجيبها فيما تسأل من الحوائج . فكانت المواكب لا تخلو من بابها . وبلغ الأمر بها أن استولت على زمام الأمور . واستيقظ الهادى من غفوته أو غفلته ، ورأى أن أمور الدولة بين يدى أمه . فكلمته ذات يوم فى أمر ، فلم يجد إلى إجابتها سبيلا فاعتل بعلة ، فقالت لا بد من إجابتى . قال لا أفعل . قالت : إذاً لا أسألك حاجة أبداً . قال إذاً والله لا أبالى ، ولئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى أو أحد من خاصتى أو خدمى لأضربن عنقه ، ولأقبضن ماله ، فمن شاء فليلزم ذلك » . ثم أخذ يعنفها ويؤنبها ويقول لها : « ما هذه المواكب التى تغدو إلى بابك كل يوم؟ أما لك منزل يشغلك أومصحف يذكرك أو بيت يصونك ، إياك إياك أن تفتحى فاك فى حاجة لمسلم ولاذى[2] » .

وكانت الخيزران من ذوات الأثرة . وهذا النوع من النساء لا يبالى بما يفعل فى سبيل إرضاء الأثرة والأنانية وبسط النفوذ . ولقد كانت ترغب فى الأمر والنهى والحكم . فوقف الهادى — بعد أن اتسع الخرق — ليسترد سلطانه . فلما ضايقها الأمر ، وآنست من ابنها معارضة وقوة ، وآلمها أن يذهب سلطانها ، وترد المواكب عن بابها ، أرادت أن تنتقم منه ، فدست إليه جوارى من جواريها ، غطين وجهه وجلسن فوقه ، فقتلنه[3] . كل ذلك ليعود الأمر إليها وحدها كما كان . وقد تم لها ما أرادت وتدفقت عليها الأموال ، حتى بلغت غلتها قبيل موتها مائة ألف ألف ، وستين ألف درهم[4] . وقد قدر أحدهم أن هذا المبلغ يعادل نصف خراج المملكة العباسية آنئذ وثلثى غلة روكفلر فى أوائل هذا القرن[1] .

فلما ولى هارون الخلافة كانت الخيزران هى الناظرة فى الأمور ، وكان يحيى بن خالد يعرض عليها ويصدر عن رأيها[2] . وكان الرشيد لا يعصى لها أمراً . وقد ذكر الطبرى أن الرشيد لما عاد من دفنها ، دعا الفضل بن الربيع وقال له : وحق المهدى ، إنى لأهم لك من الليل بالشىء من التولية وغيرها ، فتمضى أمى ، فأطيع أمرها[3] .

أما بعد مقتل البرامكة فقد استبد الرشيد برأيه ، حتى إن ظئره أم جعفر — وكانت قد أرضعته وربته — دخلت عليه أيام النكبة ، فتلقاها وأكب على تقبيل رأسها ومواضع ندبيها . فقالت يا أمير المؤمنين : أيعدو علينا الزمان ويجفونا ، خوفاً لك ، الأعوان ، وقد ربيتك فى حجرى وأخذت برضاعك الأمان من عدوى ودهرى ... ثم أخذت تستشفعه فى يحيى والفضل ، فلم يسمع لها ولم يرق لكلامها[4] .

ولم يكن لزبيدة من الأمر ، زمن الرشيد ما كان للخيزران وإن كانت هى أيضاً ذات سلطان . وكانت تهب وتصل وتعطى وتستشفع ، ولكنها ما كانت لتتدخل فى شؤون الدولة . ولعل ذلك راجع إلى البرامكة الذين استولوا على الأمور كلها .

وفى الحقبة الممتدة بين خلافة المأمون والمعتضد ، نلاحظ تدخل القيان من مسمعات ومغنيات وشواعر فى أمور الدولة . ونلاحظ عظيم سطوتهن عند الخلفاء . فكن يستشفعن ويقربن ويولين ويبعدن . وإن كان بعض هذا قد حدث زمن الرشيد أيضاً . فقد كان كلفاً بذات الخال فخلف لها يوماً أن لا تسأله شيئاً إلا قضاه ، فسألته أن يولى رجلا يحبها ، الحرب والخراج بفارس سبع سنين ، ففعل ذلك وكتب عهده به وشرط على ولى العهد بعده أن يتمها له إن لم تتم فى حياته[5] . ولعله أجابها إلى ماسألت ليخلو له الجو ...

(١) القفطى ص ١٠١
(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٥٨
(٣) ابن الأثير جـ ٦ ص ٤٠ .
(٤) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٦٣

(١) زيدان ٢ـ١١١
(٢) الطبرى سنة ١٧٠ ١٠ـ٦٠٤
(٣) المصدر السابق ١٠ـ٦٠٩
(٤) العقد الفريد جـ ٣ ص ٢٦٧ .
(٥) الأغانى جـ ١٠ ص ٧٦

ويذكر الأصبهانى أن إبراهيم بن المدبر ، لما سجن ، سألت عريب — وما أدراك ما عريب ! — الخليفة فى إخراجه ، فوعدها بما تحب ، ثم أطلقه[١] .

وكانت القيان ذوات السلطان ، يتعصبن لطائفة سياسية ، ويشايعن مذهباً ، ويقضين حوائج أهله عند أولى الأمر . وقد ذكر ابن المعتز أن فضلا الشاعرة — وكانت فى نهاية الجمال والكمال والفصاحة وجودة الشعر — كانت تتشيع ، وتتعصب لهذه العصابة من الناس ، وتقضى حوائجهم بجاهها ومنزلتها عند الملوك والأشراف[٢] .

وغضب الواثق مرة على إسحاق الموصلى ، فوضعه عليه فريدة جاريته ، وكانت فريدة أثيرة عند الواثق حظية لديه[٣] .

* * *

وإذا تتبعنا أخبار هؤلاء النساء والقيان ، نجد أنهن ، حوالى سنة ٣٠٠ هـ ، أصبحن ذوات سلطان كبير . ويذهب آدم متز إلى أنهن كن يطالبن بالحق فى المهام الكبيرة — وما أشبه الليلة بالبارحة — لأن ابن بسام الشاعر يقول :

ما للنساء وللكتا بة والرسالة والخطابه
هذا لنا ، ولهن منا أن يبتن . . .[٤]

على أن القرن الرابع قد امتاز بالقهرمانات ؛ فقد كان لهن الأمر كله ، وكن يعملن الأعمال الكبار ؛ يعزلن الوزراء ويولين ولاة ، ويجلسن للمظالم . وقد ذهبن إلى أبعد من هذا وذاك ، لكن يقضين بين الناس . فأم موسى القهرمانة هى التى أوصلت ابا الحسين بن أبى البغل إلى الوزارة ، فكان لايخرج عن أمرها[٥] كانت تجلس أخاً لها عند القصر ، فيلقاه الناس وأصحاب الحوائج يأخذ رقاعهم وشكاواهم وقصصهم إليها[٦] .

وهى التى أغرت المقتدر بالله والسيدة أمه ، بعلى بن عيسى بن داوود فى وزارته (سنة ٣٠٤) فقبض عليه وأودع السجن[١] .

وهى التى كانت تزيد فى أرزاق الخدم وتنقص منها[٢] .

والسبب فى تدخل هؤلاء القهرمانات فى أمور الدولة ، ضعف المقتدر . فقد كان مشهوراً بالتدبير بآراء النساء[٣] . وكانت السيدة والدته وخاطف ، ودستنبويه ، أم ولد المعتضد ، يدبرن الأمر لصغره . ثم ظل تدخلهن جارياً . وهكذا انتقلت الحكومة فى أيامه ، فى بغداد ، من الرجال إلى النساء .

وفى سنة (٣٠٦ هـ) ، صار الأمر والنهى لحرم الخليفة — المقتدر دائماً — ولنسائه . وآل الأمر إلى أن أمرت أم المقتدر قهرمانة لها تعرف (بمثل) أن تجلس للمظالم بالتربة التى بنتها بالرصافة ، وأن تنظر فى رقاع الناس كل جمعة ، فكانت تجلس وتحضر القضاة والأعيان وتبرز التواقيع وعليها خطها[٤] .

وقبضت أم المقتدر على زمام الأمر . وامتد سلطانها على كل شىء حتى إنها كانت تراقب — لحذرها — ما كان يقرأه أبناؤها . وقد ذكر الصولى أنه كان يوماً عند الراضى يقرأ عليه شيئاً من شعر بشار ، وبين يدى الراضى كتب لغة وكتب أخبار ، إذ جاء خدم من خدم السيدة جدته ، وهى شغب أم المقتدر ، فأخذوا جميع ما بين أيديهما من الكتب ، فجعلوه فى منديل أبيض كان معهم ومضوا . فاغتاظ الراضى . فكلم منه أستاذه ، وأفهمه أنهم أرادوا أن يمتحنوا الكتب . ولما مضت ساعتان أو نحو ذلك ردوا الكتب بحالها ، فقال لهم الراضى : قولوا لمن أمركم بهذا : قد رأيت هذه الكتب ، وإنما هى حديث وفقه وشعر ولغة وأخبار وكتب العلماء . وليست من كتبكم التى تبالغون فيها مثل عجائب البحر ، وحديث سندباد ، والسنور والفأر[٥] .

وظل المقتدر على عرش الخلافة زهاء خمسة وعشرين عاماً ، والنساء من حوله يحكمن .

ومن الطرافة أن نذكر هنا أن المعتضد كان قد تنبأ لابنه

(١) الأغانى جـ ١٩ صـ ١١٦ .
(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز صـ ٢٠٠ .
(٣) الأغانى جـ ٥ صـ ٩٠ .
(٤) آدم متز جـ ٢ صـ ١٤٥ .
(٥) الصابى صـ ٢٧٢ .
(٦) الصابى صـ ٢٧٧ .

(١) الصابى صـ ٢٨٦ .
(٢) الصابى صـ ٣٠٢ — ٣٠٤
(٣) الصابى صـ ٢٧٩ .
(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطى صـ ١٥٣ ، والمنتظم جـ ٦ صـ ١٤٨ .
(٥) آدم متز جـ ١ صـ ١٦ (نقلا عن أوراق الصولى) .

المقتدر بأن النساء سيستولين عليه . حدث صافى الحرمى مولى المعتضد قال : مشيت يوماً بين يدى المعتضد ، وهو يريد دور الحرم فلما بلغ باب (شغب) أم المقتدر ، وقف يتسمع ويتطلع من خلل الستر فإذا هو بالمقتدر ، وله إذ ذاك خمس سنين أو نحوها وهو جالس ، وحواليه مقدار عشر وصائف من أقرانه فى السن ، وبين يديه طبق فيه عنقود عنب فى وقت لا يوجد فيه العنب ، والصبى يأكل عنبة واحدة ثم يطعم الوصائف كلهن على الدور ، حتى إذا بلغ الدور إليه أكل عنبة واحدة ، حتى فنى العنقود ، والمعتضد يتميز غيظاً . فاهتم ورجع ، فسألته فقال : والله ياصافى لولا النار والعار لقتلت هذا الصبى اليوم ، فإن فى قتله صلاحاً للأمة . فقلت يا مولاى حاشاه ، أى شىء عمله ؟ أعيذك بالله من اللعين إبليس . فقال ويحك ، أنا أبصر بما أقول . أنا رجل قد سست الأمور وأصلحت الدنيا بعد فساد شديد ، ولا بد من موتى ، وأعلم أن الناس بعدى لا يختارون غير ولدى ، وسيجلسون ابنى علياً (يعنى المكتفى) ، وما أظن عمره يطول للعلة التى به (يعنى الخنازير التى كانت فى حلقه) فيتلف عن قريب ، ولا يرى الناس إخراجها عن ولدى ، فلا يجدون بعده أكبر من جعفر (يعنى المقتدر) فيجلسونه وهو صبى ، وله من الطبع فى السخاء هذا الذى رأيت فتحتوى عليه النساء لقرب عهده بهن ، ويقسم ما جمعه من الأموال كما قسم العنب .

وكانت الصورة كما قال المعتضد بعينها[1] .

وفى عهد المقتدر اشتد سلطان امرأة أخرى يقال لها (زيدان) وكان لها طبيب خاص بها ، هو عيسى البغدادى ، يحمل الرقاع بين الوزراء وربما حملها إليها لتعرض ذلك على الخليفة[2] .

وقد استطاعت زيدان هذه أن تتمكن من جواهر المقتدر وأن تأخذ سبحة لم ير مثلها ، كان يضرب بها المثل ، فيقال سبحة زيدان . وكانت قيمتها ثلثمائة ألف دينار[3] . واستطاعت أن تجعل دارها سجناً . فقد سجن عندها على بن عيسى بن داود بعد وزارته[1] ، ومن قبله وكل بابن الفرات عندها[2] ، كما سلم إليها الأمر الحسين بن حمدان أيضاً[3]

وثمة خليفة آخر لعبت به النساء ، هو المستكفى . فقد كان عبداً لحسن الشيرازية . وكانت هذه قد سفرت بينه وبين توزون القائد التركى ، واستطاعت أن يكون خليفة ، وتولت أيضاً سمل المتقى بيد غلامها السندى[4]

وأصبحت بعد ذلك تستبد بالمستكفى ، وتتولى عرض الغلمان والحجاب فى قصر الخليفة ، فى مجلس يقال له الحوذان . فانخرقت الهيبة بهذه المرأة ، وذهبت الرسوم التى كانت للخلافة ، وصارت الدار طريقاً لكل من يراها[5] .

* * *

ويتضح من هذا ، ما كان عليه خلفاء بنى العباس ، حتى منتصف القرن الرابع ، وما كان من أثر النساء فيهم ، وما أدى إليه تدخلهن فى الأمور ، من انخراق الهيبة ، وضياع الأمور ، وانتشار الفوضى . وهذه نتائج طبيعية محتومة لمن يولى أمره امرأة ويدعها تفعل ما تشاء .

(دمشق) صلاح الدين المنجد

(١) المنتظم لابن الجوزى جـ ٦ ص ٧١

(٢) تاريخ الحكماء للقفطى ص ٢٤٩

(٣) المنتظم جـ ٦ ص ٧٠

(١) تاريخ الوزراء ... لصابى ص ٢٨٦

(٢) المصدر السابق ص ١٠٥

(٣) آدم متز جـ ١ ص ٢٤٣

(٤) آدم متز جـ ١ ص ٢١ (نقلا عن مخطوط كتاب العيون ٢٢٠ — ٢٢٣)

(٥) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٤٠ (نقلا عن المخطوط السابق ٢٢٤ آ — ٢٢٦ ب)

أعلان

يوجد بإدارة التوريدات بوزارة المعارف عدد محدود من نسخ الجزء الثانى من آثار أبى العلاء — وتباع النسخة للراغبين بمبلغ جنيه مصرى واحد .

٤٦٩٣